عصـــور - تصنيف ج- المجلد 23 / العدد01 - جوان 2024
EISSN 6278-2600 ISSN 1112- 4237
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/167

معرف الكائن الرقمي للمقال:(DOI)1054239/2319-023-001-011

الأسيرة الجزائرية في أوربا 1500-1800م.

Algerian women captives in Europe (1500-1800)

د. بلقاسم قرباش*
جامعة أم البواقي/ الجزائر
Kerbechb@gmail.com

تاريخ الإرسال:012/03/ 2024 **تاريخ المراجعة:2024/01/25** **تاريخ القبول:2024 /05/20**

الملخص:

تعالج الورقة البحثية التالية وضعية المرأة الجزائرية الأسيرة في أوربا، من خلال إحصاء أعدادهنّ والاطلاع على وضعيتهن في أرض ملاّكهن، ومحاولة إحداث مقاربات تسهّل الفهم بشكل أفضل لتاريخ وديناميات الاتجار بالمرأة الجزائرية الأسيرة في منطقة البحر الأبيض المتوسط، وخاصة في العالم الغربي، وكذا محاولة فهم حياتها اليومية لدى المالك، والوظائف التي أسندت لها كأسيرة أو أمة، من خلال تحليل وتمحيص الأعمال والمصادر الأوربية التي أرّخت لوضعيتهن في الأسر؛ ففي الوقت الذي أسندت لبعضهن أعمال منزلية فإن أخريات اشتغلن على متن السفن وحتى في بعض المهن المهينة، وذهب فريق آخر إلى أن الكثير من النساء تم استغلالهنّ جنسيا من قبل ملاّكهن، في حين تزوجت أخريا بالمالك نفسه.

لقد حقّقت تجارة العبيد أرباحا طائلة للدّول والحكومات الأوربية خلال الفترة الحديثة، حيث بيعت النساء في مدريد، آليكانتي، مرسيليا، نيس، صقلية، مالطا، باليرمو، فينيسيا، ليفورنو، ونابولي، حتى أن الكثير من الجزائريين والجزائريات تمّ إعادة بيعهن في البرازيل والهند الغربية، لكي يشتغلن في مهن مختلفة في عالم الأسر.

* **د. بلقاسم قرباش، جامعة أم البواقي/ الجزائر**

الكلمات المفتاحية: الجزائر؛ أوربا؛ العبودية؛ الأسر، المغرب العربـي؛ القرصـنة؛ الفدية، الفترة الحديثة.

Abstract :

The following paper delves into the plight of Algerian women who were captured and held as captives or slaves in Europe. It encompasses the documentation of their numbers and an examination of their conditions in the hands of the owner and enemy territory. Furthermore, it seeks to offer perspectives that can enhance our understanding of the historical context and the dynamics of the slave trade in the Mediterranean region.

It is crucial to recognize that the abduction of Algerian captives was not solely driven by the intention to exchange them for Christian prisoners in Algerian territories. The slave trade was a lucrative enterprise that generated substantial profits for European nations and governments. Slave markets were prevalent in various cities, including Madrid, Alicante, Marseille, Nice, Sicily, Malta, Palermo, Venice, Livorno, and Naples. A significant number of Algerians, both men and women, were subsequently resold in distant places such as Caribbean islands Brazil and the West Indies.

Keywords : Mediterranean**,** Algeria; Europe; slavery; North Africa, captivity; Piracy; Freedom.

- مقدمة:

شـهدت الفتـرة الحديثـة وقـوع آلاف الجزائـريين كأسـرى فـي البحـر الأبـيض المتوسـط نتيجـة الحـروب، حيـث وجـد بيـنهم نسـاء وأطفـال. تمكّـن بعضـهم من الحصـول على حريتهم، بينما عـاش آخـرون حيـاتهم كأسـرى فـي أرض العدو ولم يتذوقوا طعم الحرية أبدًا.

لقد دوّن الكثير من الأسرى الأوربيين تجـاربهم فـي الأسـر بالأراضـي الاسـلامية، بينمـا امتنـع فيـه الأسـرى الجزائريـون العائـدون مـن الأراضـي الأوربية عن توثيق تجاربهم، مما خلق نقصا فادحا في المعلومات حـول عـدد وحياة النساء الجزائريات في أوربا.

تحـاول الدراسـة التاليـة إماطـة اللّثـام عـن الحيـاة اليوميـة للأسـيرات الجزائريات في أوربا، سـواء أولئـك اللاتـي تـمّ أسـرهن علـى الأرض أو فـي البحر، حيث بيع الكثير منهن في سوق الأسرى. ولهـذا فـإن الدراسـة جـاءت لتعالج الجانب المظلم لاستعباد النسـاء الجزائريـات فـي العـالم الغربـي خـلال الفترة الحديثة، خاصّة مع النقص الفادح في الدراسات العربية التـي تعرّضـت لوضعية المرأة الجزائرية في أوربا خلال الفترة الحديثة.

جاءت الإشكالية الرئيسية على الشكل التالي:

مـا طبيعـة وظـروف الأسـيرات الجزائريـات فـي أوربـا خـلال الفتـرة الحديثة؟

وانبثقـت عـن الإشـكالية الرئيسـية مجموعـة إشـكاليات فرعيـة جـاءت كالآتي: مـا عـدد النسـاء الجزائريـات اللاتـي أخـذن إلـى أوربـا مقارنـة بعـدد الرجال؟ وهما هـي الأعمـال التـي أوكلـت لهـنّ فـي العبوديـة؟ وهـل اسـتغلت المرأة الجزائريـة جنسـيا مـن قبـل المـال، أم أن عملهـا انحصـر فـي الأشـغال المنزلية؟

وأما عن الدراسات السابقة فنذكر أهمها، كالآتي:

- Khalid Bekkaoui, *White Women Captives in North Africa, Narratives of Enslavement, 1735-1830.*

تعتبر دراسة خالد البقاوي إحدى أهم الدراسات التـي تناولـت وضـعية المرأة النصرانية في شمال إفريقيا بنوع من التفصيل والدّقة، ولعلّ مـا يهمنـا من هذه الدراسة هو المدخل الذي أفرده المؤلّف حيث يفصّل فيه حول وضعية المرأة المسلمة في أوربا.

- Ariel Salzmann, "Migrants in Chains: On the Enslavement of Muslims in Renaissance and Enlightenment Europe.

أشار أريال سالزمان في كتابه "الهجـرة فـي الأغـلال..."، إلـى تجـارة الرقيق في أوربا، وخاصة وضـعية المـرأة المسـلمة الأسـيرة، وكـذا الأعمـال التي أوكلت لهنّ، بالإضافة إلى الاستغلال الجنسي الذي كن يتعرضن لـه مـن قبل بعـض المـلاّك، حتـى أن بعـض هـؤلاء النسـاء بعـن إلـى الحانـات ودور الدعارة.

- Hershenzon Bernardo Daniel, Early Modern Spain and the Creation of the Mediterranean.

عبارة عن أطروحة دكتوراه ترجع لدانيال هيرشنزون، حيث يعالج فيها المؤلّف وضعية العبيد وإشكالية العبودية في البحر المتوسط، وبخاصة وضعية النساء المغاربيات -المغرب العربي- في إسبانيا، وظروفهن في العبودية.

1- إحصاء النساء الجزائريات في أوربا 1500-1830:

الحقيقة أنّ إعطاء إحصاءات عامة أو دقيقة حول عدد النساء الجزائريات اللاتي تواجدن في أوربا خلال الفترة الحديثة صعب للغاية، ذلك أن جميع الأسرى المسلمين الذين أخذو كأسرى وعبيد إلى الضّفة الشمالية لم يدوّنوا مذكراتهم أو تجاربهم، ولعلّ سبب ذلك هو "اعتقاد الأسير أن الكتابة عن تجربته في بلاد الكفر أمر يسيئ له دينيا"، حيث يذكر الوزير محمّد الغسّاني الأندلسي الذي أرسل من قبل الملك المغربي لافتداء بعض الأسرى المغاربة من إسبانيا: "أنه استحيى وهو هو يدوّن عن بلاد الكفر". (الأندلسي، 2002، صفحة 85)

ولهذا فإنّ الفراغ الذّي خلّفه نقص مادّة عربية في الموضوع، خلق اختلالا كبيرا في إحداث مقاربات تاريخية حقيقية، كما فرض علينا استعمال مادّة أوربية، "فمليوني أسير مغاربي نقلوا إلى أوربا لم يدوّن منهم أيّ أحد مذكراته الشخصية!".

إن ما قدّمته لنا بعض المصادر الجزائرية من معلومات وعلى قلّتها تبقى أخبارا عامة تدين الأعمال القرصانية الأوربية، وتحمل معنى مجازيا لا أرقاما تعبّر عن العدد حيث تحثّ القادة الجزائريين على الغزو وركوب البحر ضدّ "أعداء الدين والكفّار"؛ "فبعد توسع الإسبان على المناطق الجزائرية واحتلال وهران سنة 1509م ذكر محمد بن يوسف الزياني أنّ الإسبان في حملاتهم قد قتلوا وأسروا وسبوا النساء والرجال". (الزيّاني، 2013، صفحة 189) في حين يخبرنا أبو رأس الناصري "أن النصارى بعد أن أغاروا على منطقة تسالة -سيدي بلعباس-، قاموا باستعباد الشيخ سيدي بلاحة وثلاثا من بناته، اللاتي أخذن إلى وهران أين بقي الجميع هناك مدّة ثلاث سنوات تحت حكم الاسبان، ليتمّ افتداء والدهم أولا ثمّ اثنتين من بناته، في الوقت الذي بقيت الثالثة أسيرة وأمّها تبكيها دون انقطاع" (Belhamissi, 1997, p. 54)، ويذكر الشّيخ بن عبد المؤمن أحد علماء الجزائر محاولا دفع الحاكم حسن باشا للقيّام بغزو وهران في نص شعري: (الزيّاني، 2013، صفحة 63)

كم من أسير حولها لا يفتدى كم من فقير حل في مثواها
وكم من نسا مع صبية أسرى بها أسرى بهم من ليس يدر الله

استولى الاسبان على سفينة جزائرية في طريقها إلى الحج سنة 1716م، وجد فيها 159 رجلا و26 امرأة وطفلا. (Roy, 1750, pp. 201, 203.) واقتيد عدد هائل من الأسرى بعد أن هاجم أسطول مكون من 15 سفينة و200 فارس من مالطة و2000 جندي مدينة عنابة بالجزائر، وأسروا ما لا يقل عن 1500 أسيرا "رجالا، نساء وأطفالا"، كما استولى الفرنسيون على سفينة جزائرية سنة 1610م، وأخذوها باتجاه طولون، حيث بيعت امرأتين في سوق المدينة، كما أسر سنة 1697 الاسبان 70 جزائريا وثلاثة نساء، واحدة يهودية واثنتان جزائريتين. وفي سبتمبر 1716 غرقت سفينة فرنسية، كانت تنقل 159 مسلم و39 امرأة وطفلا إلى المشرق، بالقرب من ميناء سيراكيس، وسبح النّاجون باتجاه الشاطئ ليقعوا فريسة في يد السكان المحليين، حيث تم اسكانهم في حظائر المدينة، حيث تم الاحتفاظ بالأسرى ذووا الرتب العالية من أجل الفدية، في حين بيع الفقراء منهم في أسواق النخاسة. (Bekkaoui, 2010, p. 67)كان للانجليز أيضا تاريخ حافل مع سواحل المغرب العربي، ففي سنة 1625 ضمت قائمة أسرى مغاربة في إنجلترا، عديد الرجال وامرأة واحدة، تدعى مسعودة *(Massouta)*. (Bekkaoui, 2010, p. 08)

ومن بين العبيد الذين بيعوا في الأسواق الاسبانية؛ كانت نسبة الرجال مرتفعة عن النساء، 79% رجال و21% نساء، وبالنسبة للون فـــ 56% بشرة سمراء، 36.6% بيضاء، 7.3% سوداء، وأما عن السّن فقد تراوحت أعمارهم بين 15-30 سنة. (Pocio, 2008, p. 114.)

ويقدم لنا سالفاتوري بونو إحصاء عاما مفاده"أنّ عدد العبيد المسلمين الذين أخذوا إلى الدويلات الإيطالية من المغرب العربي خلال الفترة الحديثة 1500-1800م، قد تراوح بين الـ 80 ألفا و120 ألفا" (O'Connell, 2010, p. 13)، بينهم"حوالي 16.800-25.299 امرأة"، في حين أكّد فريق آخر أن عدد المسلمين الذين نقلوا خلال الفترة الحديثة عبيدا إلى أوربّا قد بلغ مليوني عبد، بينهنّ حوالي الـ 420 ألف امرأة أسيرة". (Bernardo, 2018, pp. 29-30)

يوضح الجدول التـالي متوسـط ثمـن الأسـرى علـى حسـب العمـر فـي مدينة قادس، عملة (بيسوس (Pocio, 2008, p. 67))

الجدول 01: متوسط ثمن الأسرى في مدينة قادس ق18م.

العمر	رجال	نساء
14-10	115	114
19-15	137	185
29-20	134	187
39-30	144	167
49-40	114	131
59-50	90	107
<-60	62	62

إن ارتفاع أسعار الأسرى بين سن 15-39، يمكن أن نرجعه إلى قناعة المالك، بأنها الفترة التي يستطيع فيها الاستغلال التام لقدرات الأسير في وظائف مختلفة. فالرجال بين 15-25 سنة يمكن توظيفهم في أشغال منزلية (غلمان)، أو وظائف إدارية وتسيير شؤون القصر، والرجال بين 25-39 يتم استغلال طاقاتهم في وظائف شاقة، أما النساء فيتم توظيفهن في أعمال منزلية وحتى الاستغلال الجنسي.

2- وضعية المرأة المسلمة الأسيرة في أوربا.

في الوقت الذي كان يوجه الرجال فيه للاشتغال في الأعمال الشاقة؛ كانت تمنح النساء لأصحاب المال، ليشتغلن في وظائف منزلية مختلفة... وفي أحيان أخرى كخليلات (Bekkaoui, 2010, p. 397)، فتخبرنا إحدى الوثائق التي ترجع لسنة 1770م، "أن النساء اللاتي جلبن في هذه السنة إلى جنوة تمّ بيعهنّ لأغنياء المدينة من أجل القيام بالأشغال المنزلية" (Salzmann, 2013, p. 392)، غير أن ويليام فيليبس يؤكد أن استغلال النساء الأسيرات جنسيا كان أمرا شائعا في إسبانيا، بهدف انتاج المزيد من العبيد لأجل تأدية الأشغال الشاقة أو التربية، حيث أُطلق عليهم لقب "أطفال حدود البيت"، وقد عومل هؤلاء الأطفال برقة وازدراء، حتى أنّ بعض الآباء قد تركوا لأطفالهم العبيد ميراثا في حين أن آخرين باعوهم في أسواق النخاسة، ففي سنة 1506م اعترف باتيستا كاتانو من إشبيلية أن الأمة ماريا كانت عشيقته "ولأنها حامل منّي فسأعتقها"، وواصل قائلا: "إن الطفل الذي ستنجبه سيكون عليه أن يترعرع بجانبي إلى أن يبلغ سن العاشرة فأرسله إلى جنوة ليتربى هناك على نفقتي، ثم أزوجه إذ هو بلغ 14 سنة وأمنحه 400 جنيه جنوي؛ أما إذا كانت فتاة فسأزوجها بمجرد بلوغها سنّ الـ 14 سنة". (Phillip, 2014, pp. 88-89)

وعلى العموم فإن المرأة الجزائرية قد عانت من العبودية في العالم الأوربي، حيث أثبتت التسجيلات أن الكثير منهنّ أصبن إصابات بالغة لدى ملاكهنّ، ففي "سنة 1514م اشترى غونزالو دياز امرأة من خوان دي بالما، فعانت أشدّ أنواع العبودية لدى مالكها الجديد حيث كسر عمودها الفقري مع تورمات في جميع أنحاء جسدها"، وفي سنة 1523م باع زوجان فتاة من المغرب العربي تبلغ من العمر ست سنوات فقط، أصبح اسمها بعد التعميد أنتونيا لويس دي سيلادا، فوصفت في وثائق المحكمة على أنها كانت تتبول في الفراش ولديها عين واحدة فقط" (Phillip, 2014, pp. 78-79)، والأرجح أن الفتاة قد عانت مشاكل نفسية وجسدية بسبب فصلها عن عائلتها قسرا.

وكان يمكن أن تباع المرأة الأسيرة مرّات ومرّات فتجرّب أنواع مختلفة من العبودية، مثلما وقع مع الجزائرية زرفة: ففي "سنة 1650م أخذت زرقة أسيرة من قبل الحامية الإسبانية إلى وهران، فاشتراها اليهودي ماركي

دافيد ثم باعها إلى أنطونيو بارثيلو قائد إحدى السفن الإسبانية، الذي باعها بدوره إلى فرانسيس كوتونير فارس بمنظمة سانتياغو، ثم بيعت إلى فرانسيس أرتوس من برشلونة سنة 1659م". (Bernardo, 2018, p. 171)

وفي جانب آخر فإن سجلّات التعميد الخاصة بكرتاخينا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر قد أثبتت أن "ما نسبته 85% من أطفال العبيد قد سجّلوا كمجهولي نسب – آباء-"، ففي سنة 1692م عمدت فاطمة الجزائرية ذات الثلاثة عشر سنة، ومنحت لمالكها الذي استغلّها جنسيا فأنجبت طفلا لم يُعلن عن اسم والده، ثم أنجبت طفلا آخر بعد عام ونصف من أب لم يعلن عن اسمه أيضا، وفي حادثة مماثلة فإن عائشة البالغة من العمر سبعة عشر سنة قد أنجبت في أحدا عشر سنة اللاحقة أربعة أطفال دون تحديد آبائهم. (Phillip, 2014, p. 89)

ولم يتوقف الأمر عند ممارسة الجنس مع الأسيرة حيث أن هناك أمثلة جليّة تثبت الاغتصاب القسري ضدّ النساء المسلمات، "ففي شهادة للمسلمة ماريا ضدّ الطبيب فرانسيسكو خيمينيز من جزر الكناري قالت أن الطبيب قد أقدم على اغتصابها رغم صغر سنّها وعلى الرغم من محاولة مقاومته، فوضع وسادة على وجهها وأفقدها عذريتها بالقوّة"، في حين أن الكثير من النساء المسلمات بعن للحانات من أجل العمل كمومسات. (Phillip, 2014, p. 89)

إن مثل هذه الوثائق قد سلّطت الضوء على واقع قاسي لتجارة الرقيق، بما في ذلك استغلال النساء جسديا ونفسيا، وحتى الفتيات الصغار لم يسلمن من سوء المعاملة؛ ما يثبت أن العيش كعبد خلال هذه الفترة كان قاسيا بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى.

كان تعميد النساء الجزائريات، أمرا روتينيا تقوم به الكنيسة تجاه الأسرى المسلمين؛ وعكس الأسير المسيحي الذي يعتنق الاسلام؛ فإن المعمدين من المسلمين كانوا يستمرون في العمل بالأشغال الشاقة. وقد أثبت أرشيف الفاتيكان أن العديد من الفتيات الصغيرات والبالغات تم تعميدهن، وغيرت أسماؤهن لأسماء أوربية؛ "ففي سنة 1608 أسرت فاطمة الجزائرية ذات الثلاثة عشر سنة من قبل قراصنة جنويين وبيعت في سوق العبيد بليفورن، إيطاليا، وبعد مفاوضات بين المالك ووالدها أفضت إلى إطلاق سراحها مقابل فدية، غير أن السفينة التي عادت بها نحو الجزائر تم إيقافها في كورسيكا أين أجبرت فاطمة على اعتناق المسيحية قسرا، فعمّدت وجعل

اسمها "ماداليا"، وفي سنة 1658م أرسلت إحدى النساء الجزائريات رسالة إلى العاصمة "تشتكي فيها إجبارها على اعتناق الكاثوليكية"، في حين أجبر على التخلي عن الإسلام أربعة أطفال وأربعة نساء جزائريات خلال الفترة الممتدة بين سنتي 1689-1695م. (Bernardo, 2018, p. 130) كما أثبتت الوثائق أن بعض النساء المسلمات تزوجن من مسيحيين ورفضوا أموال الفدية للعودة إلى الديار؛ مثل حالة فاطمة الجزائرية، من عائلة غنية كانت قد أخذت أسيرة باتجاه كورسيكا في طريقها للحاق بزوجها، رغم وصول أموال الفدية:

"... لقد طلبت بجدية بالغة أن تعمد، فغيّرت اسمها ليصبح ماريا إيجينيا *Maria Eugenia* على الرغم من أن إسمها الأول كان فاطمة، وبعد هذا رفضت أموال الفدية التي أرسلها الأتراك لفديتها، لقد تزوجت كورسيكيا مسيحيا"(Bekkaoui, 2010, p. 10) ، إن مثل هذه الحالات كانت نادرة جدا؛ فالكثير من الرسائل والوثائق أطلعتنا عن فداحة التعذيب الذي كان يمكن أن تتعرض له المرأة المسلمة حتى بعد تعميدها؛ " فسيسيليا وهي أسيرة من شمال إفريقيا أيضا، كان قد اشتراها ألفونسو دي أكورينا من باليرمو لأجل خدمة زوجته، وقد أجبرت هذه الأسيرة على اعتناق النصرانية، وتمت معاملتها معاملة قاسية، حيث ذكرت سيسيليا أن سيدتها سيّئة الطباع، وحمّلتها ما لا تطيق، فقد ذاقت ذرعا بسبب المعاملات السيئة، كالتعذيب، والشتم، ولذلك صرحت سيسيليا أمام محكمة كنيسة صقلية وعلى مسمع من سيّدها، وسيّدتها بأنّ إله المسيحيين ليس إلها ما دامت أسيرة، وتعاني شتى أنواع العبودية، وتذوق مختلف ألوان العذاب، كما وصفت سيدتها بأنّها خنزيرة. (سعيود، أيلول 2010، صفحة 75)

وتروي لنا التسجيلات أنه في حال رفض المسلم أو المسلمة اعتناق المسيحية فإن الموت هو المصير المحتوم، مثلما: وقع مع "تركيين رفضا الارتداد عن الإسلام، فتم رميهما في البحر"، وأجبرت طفلة جزائرية على اعتناق المذهب الكاثوليكي في قرطاجنّة سنة 1723م، رغم معارضة والدتها للفكرة سنة 1723م. (Bekkaoui, 2010, p. 131)

وكان عمل القساوسة على تحويل البالغين من الرجال إلى المسيحية محدودا؛ إلا أنّ تحويل النّساء والأطفال المشتغلين في الأعمال المنزلية قد تكرر بشكل ملحوظ. إن الوثائق والتسجيلات أثبتت بما لايدع مجالا للشّك أن

أغلب المرتدّين إلى المسيحية في روما وجنوة كانوا نساء وأطفالا، في الوقت الذي لاحظ المؤرخ العثماني سرايا فاروقي *Suraiya Faroqhi*، أن الملاك كثيرا ما أجبروا أسراهم على التخلّي عن ديانتهم، (Ariel, sept. 2013, p. 402) في حين تخبرنا وثائق محكمة وهران الخاضعة للحكم الإسباني "أن عدد النساء اللاتي عمّدن كن أكثر بكثير من الرجال". (Caro, 2011, pp. 203, 204)

كانت الشكاوي والرسائل تصل الدّاي من الأسرى المسلمين في العالم المسيحي بشكل دوريّ، ففي رسالة من أحد الأسرى الجزائريين المتواجدين بصقلية مؤرّخة بتاريخ الـ 24 جانفي سنة 1717م، يشتكي فيها من وضعية الأطفال والنساء المسلمات في العبودية، فيقول:"إن الطبيعة والعرف تمكن الرجل من تحمل العبودية بنوع من الصبر، لكن بالنسبة للنساء والأطفال فإنهم يطلبون عنايتكم، فضعفهم يستدعي تحريرا فوريا، ولهذا فأنتم مسؤولون عن كل ذنب يمكن اقترافه في حقّهم".(Roy, 1750, p. 203) ولعلّه يقصد بالذنوب تعرّض النساء للتحرّش أو الاعتداء الجنسي أو استخدامهم لأغراض غير أخلاقية؛ فبالنسبة للمسلم فإن فقدان العذريّة أو الارتداد عن الإسلام، جريمة وخطيئة كبرى قد يتحمل وزرها الحاكم نفسه، كما شكى رضوان الجنوي الذي كان يهوديا ثم اعتنق الإسلام وأصبح عالما مسلما بالمغرب قائلا: "في الوقت الذي يفتدي فيه النصارى أسراهم ويجتهودون في ذلك اجتهادا حثيثا، فإن الأسرى المسلمين يقبعون في العبودية البائسة دون أيّ أمل لتحريرهم"، ثم واصل محتجّا: "لم يجب على هؤلاء الكفّار العودة إلى ديارهم... بينما يبقى إخواننا المسلمون عبيدا لديهم". (الممنوني، 1978، صفحة 77)

والحقيقة أن الكثير من الحكام المسلمين سعوا إلى تحرير الأسرى المسلمين سواء من خلال عمليات تبادل للأسرى أو شرائهم، وفي أحيان أخرى تقديم اعتراضات لقساوسة الفدية عن وضعية المسلمين في العبودية على الأراضي الأوربية، ففي "سنة 1696م اشتكى الداي الحاج أحمد في رسالة لآباء الفدية التابعين لتنظيم الثالوث المقدس عمّا يتعرّض له الأسرى المسلمون من تجاوزات، وعدّد الظلم الذي يقبعون فيه كإجبار الأسرى المرضى على إنكار ديانتهم واعتناق النصرانية، وكذا الطريقة غير اللائقة في التخلّص من جثثهم، برميها في البحر مربوطة بحجر أو تركها مرميّة في الشوارع القذرة أو إلقائها من فوق جدران القلاع، واختتم رسالته قائلا:"لم

تفعلون هذا بأسراكم المسلمين؟ وكأنكم تعاملون كلبا". (Bernardo, 2018, p. 130)

ولم تتوقف ردود فعل الحكام عند هذا الحدّ، فبعد أن "بلغت الداي شكاوي من الأسرى الجزائريين بخصوص إجبار فاطمة على اعتناق المذهب الكاثوليكي، ردّ بأن ألقى القبض على آباء الفدية الاسبان، وراسل السلطات الاسبانية يطلب توضيحا عاجلا"، فراسل الملك الاسباني السلطات الجنوية يلطب منها تفسيرا للحادثة، فأُرسل بعض المسلمين لاستجواب فاطمة وجمعت شهادتها في تقرير باللغة العربية، بعث به إلى روما والجزائر وإسبانيا، وجاء التقرير كالآتي: "إن فاطمة قد تخلّت عن إسلامها عن طيب خاطر، واختارت العيش وسط النصارى"، ولما قرأ فيليب الثالث التقرير أعطى الأوامر بأن يتم الاحتفاظ بفاطمة ورفض عودتها إلى الجزائر. (Bernardo, 2018, p. 164)

لم يصدّق الجزائريون الرواية الاسبانية، وراحوا يضيّقون على آباء الفدية، "فألقوا القبض على ثلاثة آباء فدية تابعين لمنظّمة الثالوث المقدّس رفقة 130 أسيرا كانوا قد حرّروا سلفا من الجزائر، وأثناء المفاوضات ألحّ الجزائريون على الاسبان إرسال فاطمة إلى طبرقة، أين تستجوب من قبل الجزائريين لأجل التأكد من صدق تحوّلها إلى المسيحية عن طيب خاطر، غير أن المفاوضات بقيت تراوح مكانها بسبب رفض الامبراطور الإسباني إرسال فاطمة إلى طبرقة، وفي المقابل بقي الآباء الثلاثة والأسرى محتجزين في الجزائر عدّة سنوات، إلى غاية وقوع زوجة وابنه باي الإسكندرية في قبضة الاسبان، أين تمت المقايضة بين الطرفين. (Hershenzon D. , 2014, p. 25)

والحقيقة أن التدخل لتحرير الرجال والنساء والأطفال من العبودية في أوربا لم يكن منوطا بأجهزة الدولة فقط، بل تعدّاه إلى التحرير الفردي، "فقد تدخلت زوجة الرايس بابا حسن لتحريره من قبضة الاسبان سنة 1616م، وذلك من خلال شراء الجندي جومينغو ألفاريس من مالكه لأجل مقايضته بزوجها، وفعلا فقد راسل ألفاريس مجلس الحرب الإسباني شهر أفريل من نفس السنة، قائلا: "بعد خدمتي لسيادتم عديد السنين في البحرية الملكية... فإني أسرت من قبل أتراك الجزائر، ولست أملك المال لتحرير نفسيي سوى

من خلال مقايضتي بالرايس بابا حسن" (Hershenzon, 2014, p. 15)، ولسوء حظّهما فقد رفض المجلس طلب دومينغو، وهكذا فقد راسلت الأمهات في الجزائر والمغرب وتونس النساء المسيحيات في أوربا أملا في مقايضة أزواجهم وأبنائهم.

- خاتمة:

إن مقارنة بسيطة بين وضعية الأسرى في الضفّتين تثبت بما لا يدع مجالا للشّك أن وضعية الأسير الأوربي في الجزائر، كانت أحسن من نظيره المسلم في أوربا؛ ففي الوقت الذي كان يتم إجبار النساء المسلمات على التخلي عن الإسلام فإن الكثير من النساء المسيحيات عشن في الجزائر دون إجبار على اعتناق النصرانية، حيث تذكر ماريا مارتين في مذكرتها: "أنّ الجزائريين كانوا ممنوعون من الزواج من امرأة نصرانية قصرا، فالموت جزاء كل من يخالف الأمر". (Martin, 1809, p. 49)

- إن الدعاية التي قادتها الأدبيات والمؤلفات الأوربية في حق المسلمين، واتهامهم بأبشع الأوصاف "كالوحشية والإرهاب والتعذيب...إلخ"، مردّها انعدام أعمال للأسرى المسلمين العائدين من الأراضي الأوربية، تساعد في دحض مثل هذه النظرة التي كرّستها الكتابات الغربية التراكمية.

- رغم المحاولات التي قادتها السلطات الجزائر لتحرير النساء الجزائريات من العالم المسيحي، نظير المراسلات المتواصلة من الأسرى الجزائريين، إلا أن الكثير منها قد باء بالفشل، بسبب الضغط الجماهيري على السلطات الغربية.

- كان يمكن للمرأة أن تعمل في مهن مختلفة طيلة الفترة التي تقضيها في العبودية، كالعمل على السفن البحرية والحربية، أو أن تؤدي وظائف منزلية أو حتى استغلالها جنسيا من قبل المالك.

- على عكس المرأة المسيحية بالجزائر التي كان يمكنها العودة إلى بلدها الأم بمجرّد توفر أموال الفدية، فإن المرأة الجزائرية قلّما تمّ تحريرها من الأراضي الأوربية.

-إن ظروف النساء الجزائريات في عالم العبودية في أوربا كانت سيّئة جدّا جرّاء الممارسات التي كان يقوم بها المالك تجاههن، خاصّة إذا علمنا أن الكثير من هؤلاء الملاك أو الأسياد كان يقودهم حماسهم الديني أو الغريزي لممارسة أعمال بشعة ضدّ كل ما هو مسلم.

- قائمة المصادر والمراجع:

- إبن جبير، (2005)، رحلة إبن جبير، دار صادر، بيروت.
- الغساني محمد الأندلسي، (2002)،حلة الوزير في افتكاك الأسير 1691-1690م، تح. نوري الجر والتوزيع، دار السويدي للنشر، أبو ضبي،.
- المموني محمد، وثيقتان جديدتان من ذيول موقعة واد المخازن"، مجلة "الإيمان، ع.77، شعبان يوليوز 1398 هـ / 1978م.
- سعيود إبراهيم، "من تراث الأسرى الجزائريين في إيطاليا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر"، (2010) المجلة التاريخية المغاربية،37، جويلية، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس.
- Khalid Bekkaoui, (2010) *White Women Captives in North Africa, Narratives of Enslavement, 1735-1830*, UK: Palgrave Macmillan.
- Matar Nabil, (2009), *Euroupe Through Eyes Arabs 1578-1727*, New York: Columbia Press University.
- Masson Paule, (1903), *Histoire des établissement et du commerce Française dans l'Afrique Barbaresque (1560-1793), (Algérie, Tunisie, Tripoliane, Maroc)*, Paris: librairie Hachette et Cie.
- Braudel Fernand, (1983), *The Mediterranean and The Mediterranean World in The Age of Philip II*, Vol 2 (2 Vol), Tr. Sian Reynolds.
- Pocio Periañez Gomez, (2008), La Esclavitud en Extramadura (Siglos 16-18), Tesis Doctoral, Departaminió de Historia, Universidad de Extremadura, Cacers.
- Ariel Salzmann, (Sep 2013), "Migrants in Chains: On the Enslavement of Muslims in Renaissance and Enlightenment Europe", religions, Vol. 03.
- Laurent d'Arvieux, (1944), Mémoires du chevalier d'Arvieux: voyage à Tunis. Jacques de Maussion de Favières, Ed., Paris: Editions Kimé.

- Hershenzon Bernardo Daniel, (2001), Early Modern Spain and the Creation of the Mediterranean: Captivity, Commerce, and Knowledge, University of Michigan: A Thesis for The degree of Doctor of Philosophy (History).
- Hershenzon Daniel, (2014), "[P]ara Que Me Saque Cabesea por Cabesa...": Exchanging Muslim and Christian Slaves across the Western Mediterranean, : African Economic History , University of Wisconsin Press, Vol. 42 .

- Vitkus Daniel J., Piracy, (2001), Slavery, and Redemption, Barbary Captivity Narratives From Early Modern England, New York: Columbia University Press.
- Matar Nabil, (2005), Britain and Barbary 1589-1689, Florida: University Press of Florida..
- Monique O'Connell, "The Itallien Renaissance in the Mediterranean or between East and West?", California Italian Studies, 2010.
- Daniel Hershenzon, (2018), The Captive Sea Slavery, Commuication, and Commerce in Early Modern Spain and the Mediterranean, University of Pennsylvania Press.